قراءة فى الأعمال الشعرية
للشاعر فاروق شوشة

بصدور الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر فاروق شوشة تتحدد قيمة فنية هامة فى ملامح شعر الستينيات بعد أن صدرت منذ عام ١٩٨٦م أعمال أمل دنقل، ويبدو أن صدور مثل هذه الأعمال لشعراء الستينيات قد أصبح ظاهرة أدبية ليس على مستوى الحركة الشعرية فى مصر بل على الساحة الشعرية العربية، حيث صدرت أعمال الشاعرين العراقيين سعدى يوسف وحميد سعيد والشاعر اليمنى عبد العزيز المقالح والشاعر الفلسطينى محمود درويش.

ولا شك أن صدور هذه الأعمال فى هذه المرحلة يحمل دلالة واضحة مؤداها أن جيل الستينيات يحاول وهو فى أوج نضجه أن يقدم نموذجه الشعرى للجيل الذى جاء بعده وهو يعطى تجربته فى وقت بعد فيه تأثير الموجة الأولى لشعر الرواد الذين كف بعضهم عن العطاء الشعرى إما بالموت أو الجدب أو الإحباط كما أن هذه الأعمال توحى بتأسيس حلقة وصل جديدة هى الحلقة الثانية فى حركة الشعر قبل أن يصعد صوت الجيل الثالث والرابع مبتعدا عن هذا التواصل الخلاق ضاربا فى بيداء الحداثة مرة أو بقصيدة النثر أخرى. لهذا كله جاءت هذه الأعمال تأكيدا لرسوخ حركة الشعر الحديث وأصالة الإبداع الذى قدمه الجيل التالى للرواد واستشرافا لمستقبل لا تنفصل فيه الأزمنة الأدبية ولا يتناثر

الصوت الشـعرى فى ساحة تزاحمت عليها الإحباطات الفكرية وكدرت طموحها الهموم الثقافية وضيقت عليها الكوارث السياسية الخناق. تأتى أعمال فاروق شوشة فى هذا الإطار لتكون لبنة حية فى بناء يقاوم – وهو ينمو – كل محاولات نفى الشعر عن الساحة العربية.

وتشمل هذه الأعمال خمسة دواوين شعرية هى «إلى مسافرة» و«العيون المحترقـة» و«لؤلـؤة فى القلب» و«فـى انتظار ما لا يجـىء» و«الدائرة المحكمـة» وتمثل رحلة الشـاعر منذ صدور ديوانـه الأول عام ١٩٦٦م حتى الآن، ويتوقع القارىء أن يطالع فى صدر هذه الأعمال رؤية الشاعر لتجربته الشـعرية ولكن الشـاعر آثر أن يكتب كلمة بالغة الإيجاز حول رحلته الشعرية ولم يشف غليلنا بالإجابة على ما قد يثور فى نفوسنا من أسـئلة حول مرحلة تكوينه الثقافى ومعتقداته الفكرية وتأثراته الشعرية وشـهادته الفنيـة علـى العصر الذى انغمس فيه وسـاهم فـى كثير من نشاطاته، ولكن فاروق شوشة كان يتعجل لقاء القراء على أرض القصيدة ذاتها مؤثرا المواجهة كما يقول هو نفسـه «وأعترف أن مسـاحة كبيرة تضم بعض قصائد هذه الدواوين الخمسـة تبدو لأول وهلة وكأنها حديث عن الذات لكنها فى جوهرها ليسـت بعيدة عن هموم الآخرين. والكثير منها يرتبط – فى جوهره – بسـاحة الأحـداث والتجارب التى تركت أثرهـا عميقا فى وجدان الانسـان المعاصر». ثم يتحدث عن الأسـلوب الفنـى لقصائده وهو يعى أنه قد اعتمد على اللغة باعتبارها نسـقا لفظيا لا ينفصل عن السياق التاريخى لتراث القصيدة العربية كما لا يسقط فى هاوية الخواء الفنى باسـم الحداثة أو يقع فى شـباك النمط التقليدى بل

يلتزم الصدق وعفويته وطلاقة مشـاعره مستجيبا لصوت الأصالة فى ذاته والتطور فى عصره يقول:

«يواكب هذا الهم هم فنى.. أن يظل النسق اللغوى لهذا الشعر عربى الوجه والملامح والسمات غير هجين أو نسق لا يحاكى أساليب الترجمة ولا تستهويه «الموضات» الطارئة وإن ادعت الحداثة والرغبة فى التجاوز لا مـن حيث الصيغة والمعمار أو من حيـث المفردات والتراكيب بعيدا كل البعد عن اسـترفاد الكلشيهات والقوالب التقليدية فى موروث الشعر العربى أو اسـتدعاء المقولات الشعرية الجاهزة التى أصبحت فى عصور الضعف والتخلف نهبا شـائعا يدعيه كل شـاعر لنفسـه ولا يخجل من انتسابه إليه».

ومن الواضح أن الشـاعر يحس بأن اللغة تلعب الدور الأساسـى فى تجربته الشـعرية لا من حيـث كونها تراكما لفظيا بـل باعتبارها كونا ممتلئـا بالإيقاع والصور والظلال والأصوات والفراغ والامتلاء والمسـاحة والتكثيف. ذلك أن لغة الشـعر ليسـت مجرد توظيف المفردة فى نسق من الجمـل الصحيحة ولكنهـا كائن يتلبس التجربة. فيشـف ويعتم، يمتلئ ويفرغ، يتوتر وينبسـط، تظل اللغة الشـعرية لغة اختراق لا لغة اتساق بمعنى أنها تعادى المألوف وتنبثق من المخالفة لأنها تأخذ شكل الموهبة التى تسـتخدمها. ليسـت اللغة مجرد عنصر لتوصيل التجربة الشعرية بل هى وعاء العناصر الحية التى تشكل التجربة فإذا اقتربنا من جوهر الرؤية الشـعرية فى هذه الأعمال وجدناها تجعل من الذات بؤرة انبثاقهـا، تتمدد حولها وقد تداعب نوعـا غامضا من الوجود الجماعى

المفقود تنشـد نوعا من الفردوس العام ولكنها تعود إلى احتضان الذات فى صميمية ممتزجة مرة بالحسـرة والإشـفاق على النفس ومرة بتدليلها والانفتـاح بها على عالم ملىء بالشـجن والحزن ولكن لا يعتصره الألم. أحـزان الشـاعر رقيقة ناعمة ولكنها ليسـت مريرة علـى الإطلاق، من التبسـيط الشـديد أن نطلق على رؤيته الفنية مصطلح الرومانسـية وإن كانت هذه الرؤية لا تتناقض مع هذا المصطلح بشكل أساسى. لا يكتب الشـاعر عن موضوع وإنما يجسـد تجارب تنتمى إلى الوجود فى شـتى تحولاتـه غير أن هـذه التجارب تفضى فى النهايـة إلى موضوع يحدد هوية اهتمام الشـاعر وشواغله الشعرية وإذا أبحنا لأنفسنا أن نستخلص الموضوع من هذه الأعمال وجدناها تتجسـد مباشـرة فى الحب والحزن والولع بالجمال.

فى ديوانه «إلى مسـافرة» الذى يضم إحدى وعشـرين قصيدة تتبدى تجربـة الحب فـى عناق حميم مع الحزن يقودهما حلم غامض يسـعى الشاعر لتجسيده بل إننا كثيرا ما نحار ونحن نقرأ قصائده عندما نحاول التعـرف على الملامح الفارقة للرفاق الثلاثة: الحب – الحزن – الحلم. وهذا الديوان يشف عن تجربة عاطفية عميقة قدر للشاعر أن ينال حظه السـعيد منها كاملا ولكن طبيعة الحياة الغلابة تأبى إلا الفراق، ويندلع شوق متشـح باللوعة خلف هذه المسافرة التى يجعل منها الشاعر مدارا للتحولات فهى مرة طائر وأحيانا تكون قديسة أو نجما يقول الشاعر:

قديستى

مازال صوتك الندى فى دمى

شيئا أثيريا أضمه وأحتمى
رناته تدق أيامى تصب فى غدى
تدفق من أعماق نبع دافئ القرار
بالأمس ضمنى هنيهة وطار
فرف خاطرى الملح واستدار
وكدت ألمـــس النـــداء باليـــد

ثم يخاطب المسافرة كما لو كانت طائرا وفى الرمز نوع من المزج بين الحبيبة والحب ذاته يقول فاروق شوشة:

يا طائرى يا طائرى
خطاك فى دمى تسوخ تنفض الأمان
وقع خطاك فى الدرج
وطرقة وطرقتان
يا بابى الصغير يا جدارى الكبير
تألق الطريق بالوهج
وأشرقت من كوة يدان
نديتان بالحنان
يا طائرى يا طائرى
شىء بأعماقى اختلج
تفتحت فى الصدر شرفتان

ثم يخاطبها باعتبارها نجما فيقول:

عينى على نجم بآخر السماء

فى هدأة الكون جاس برهة وغاب
لو يستطيع مد لى شعاعتين
وأغرق العيون بالضياء

وعنصر التحولات فى هذا الديوان تجعله يتجاوز مفهوم الرومانسية البسيط كما أن محاولات التجسيد واختراق المألوف فى الصورة الشعرية تجعل من إطاره الفنى خطوة واضحة متميزة داخل حركة الحداثة. ونلمح فى الديوان تراسلا حادا بين صوت الشاعر فاروق شوشة وأصوات «صلاح عبد الصبور ومحمود حسن إسماعيل ونازك الملائكة وبدر شاكر السياب» وهو تراسل يقوم على وحدة العالم الشعرى الذى انغمس فيه هؤلاء الشعراء كل بطريقته الخاصة وهو عالم يتميز بالتركيز على الرؤية الباطنية وجلجلة الإيقاع وجموح الخيال وعذوبة الألفاظ وتماسك اللغة. وليس تراسل الشاعر مع هذه الأصوات إلا دليلا على أنه يحلق قريبا من نفس المدار وهو يحاول أن يصنع مداره الخاص وينجح فى ذلك تماما. وإذا كانت الذات والتجربة العاطفية تحظى بنصيب كبير إلا أن ثمانى قصائد فى هذا الديوان تتجاوز ذات الشاعر وهمومه الوجدانية الضيقة إلى الهموم القومية والوطنية والإنسانية وهو عدد يزيد عن ثلث قصائد الديوان ويقترب من نصفه وهذه القصائد هى:

«شهيد الكلمة» «الحصاد» «من فدائى إلى صديقته» «بغداد تثور» «يا مغرب» «الخلاص» «فلتنزل الستار» «من سفر أيوب».

فإذا جئنا إلى ديوان «العيون المحترقة» وجدنا استمرار التجربة العاطفية فى إطار من النضج واتساع الحيلة وانكشاف المستور، وفى هذا

الديوان يلجأ الشـاعر إلـى قدر من التركيب الفنـى للقصائد والغوص فى أعماق الشخصية ومحاولة رسمها باقتدار فى قصيدة «مرثية شاعرة عاشقة» و«تنويعات على لحن أساسى» وتظهر فى هذا الديوان محاولات التفلسف:

أسأل: يا مذلة السؤال
هل آن أن نعود للبراءة
لفطرة الإنسان حين يملك الإنسان
بقبض كفيه الضئيلتين زهوة الحياة
هل آن أن نعود للجراءة
لفطرة الإنسان حين يؤمن الإنسان
بقدرة الغريق أن يلاطم الموج وأن يجاوز الردى
بحثا عن النجاة
هل آن أن نعود للبراءة
لفطرة الإنسان حين يعرف الإنسان
حقيقة الذى مضى
وجوهر الخبىء فى بقية الزمان.

وإذا كان ديـوان «إلى مسـافرة» يحفل بالوهج الأول لعاطفة تسـعى لتحقيق الحلم فإن «العيون المحترقة» يوحى باتساع حيلة الشاعر الفنية وحذقـه وقدرته على الغوص وراء السـطح اللامع للآلئ السـهلة المنال يصير الشاعر أكثر مكرا ودهاء ومهارة. ويضم الديوان ثمانى عشرة قصيدة منها قصائد تعبر عن هموم جماعية وحزن نبيل وطموح تسـنده شجاعة المواجهة وهى قصائد:

«كلمة الحزن» «باسم الكلمة» «لأنك الإنسان» «أحزان الفقراء» «تحت ظـلال الزيزفون» «نداء سـلام» «أصوات مـن تاريخ قديـم» إن التعبير الشـعرى فى «العيون المحترقة» يخطو بحذر نحو مزيد من الدهاء الفنى ولكنه يتمسك بخصائصه من حيث الشكل والمضمون معا، فنحن نطالع فى هذا الديوان الولع نفسـه بالتركيز على الخاص والتعامل مع الحب باعتباره سـرا يشـيع فى الحياة قوة التغيير والتأثير ويأتى التعبير دائما لا ليقتنص التجربة بل ليقدم ما تبقى منها بعد أن استنفد الشاعر حظه الواقعى من متعها وألمها. يقول فى قصيدة «كان حياتى»:

كان اسمك يدعونى أن أطوى الأسماء
وأطوى الأيام.. فليس سواه
شيئا كالألم المسحور كوقع الحلم الهاتف
استشعره فى وأخشاه
كأن اسمك ينقر صدرى
تلمس أعماقى الخضراء يداه
تربت كفاه على دنياى
وتغفو فى عينى رؤاه
كان اسمك يغرينى أن أعبر هذا الموج
وأن أتحداه
حسبى من رحلة أيامى
قبس من وجهك ألقاه
هل يكفى الآن بأيدينا
أن تبقى منه ذكراه

تعــاود التجربة العاطفية بآفاقها الرومانســية الظهور بكثافة وغنائية فى ديوان «لؤلؤة فى القلب» الذى يحتوى على اثنتين وعشــرين قصيدة تكاد تدور كلها حول «الحب» مع ثبات بعض الرموز وابتعاد الشاعر عن اللوعة والاقتراب من المشهد الخارجى للحب والمحبوب على السواء:

أروع من عينيك لا
النجمتان تهديان خطوى الأمين
منارتان تثقبان ظلمة السنين
فأهتدى إليك
وأعبر المدى الحزين
أروع من عينيك لا
سفينتى إلى مرافئ القمر
وديعتى
وزادى الكبير والسفر
على شعاع مقلتيك
يا بسمة مهاجرة
من عالم الأثير والصفاء
من روضة العبير والنقاء
وضيئة وعاطرة

ويميــل التعبيــر فى هذا الديــوان إلى الإغراق فــى الوصف بدلا من الغوص وراء نوع من التجســيد الحــى للتجربة. موقف أقرب إلى الغناء وينعكــس هذا الموقف على البناء الفنى الذى يجىء فى الغالب ســاكنا يفيض بالنشوة.

بين عينيك موعدى
يومنا القادم أحلى لم يزل طوع هوانا
كلما شارفت الحلم خطانا واطمأنت شفتانا
واستراحت مقلتانا
وتمنينا فكان العمر أشهى من أمانينا وأغلى

إنه شـاعر يغنى سـعادته فى الحب ولهذا فهو أقرب إلى الإنشـاد أقرب إلى عالم لا تسكنه اللوعة بقدر ما يسكنه الرضا.

يا حبنا الحبيس فى خزائن التذكار
تجيئنا من بعد غيبة الربيع والأمطار
محملا بزادك الوفير من بيادر الأسفار
حكاية تؤنسنا
تشعل فى شتائنا رغائب انتظار
لعلنا
نصنع منك عالما يعيشه الصغار
ويشرق النهار

إن بهجـة التجربة العاطفية فى «لؤلؤة فى القلب» تجعل من الإيقاع صورة للسـكينة التى تظلل وجدان الشـاعر وهو إيقاع راقص يميل إلى الصيغـة التقليدية فقد جـاءت نصف قصائد الديوان تقريبا من الشـعر العمـودى ويقترب النصف الآخر من الشـكل الحديث ولكنه يظل أمينا لهذا الإيقاع الغنائى الراقص الذى يبدأ ولا يتطور يتراكم ولا يبنى يغنى ولا يشكل.

تبلغ تجربة فاروق شوشة الشعرية تمام نضجها واستوائها وتفجرها فى ديوانه «فى انتظار ما لا يجىء» فى هذا الديوان يواجه الشاعر زمنا سريع التحول وعالما يتناقص جماله ويزداد قبحه ومسالك تنتهى إلى الخواء. حتى العشق يأخذ شكل التحول فهو ليس مجرد التعلق بامرأة جميلة أو حلم يرحل بين ضفافه إلى جسد باذخ الثراء والفتنة ولكن العشق يتخذ دلالة وجودية وربما صوفية ليصبح طريقا إلى الخلاص وليس مجرد طريق للسعادة. فالإنسان البسيط ينشد السعادة وقد يحصل عليها إذ سلك دروبها وسرعان ما يخبو بريقها أما الفنان والشاعر العميق فهو يبحث عن خلاص ليس لروحه فحسب ولكن للبشرية كلها من هنا فنحن نواجه فى ديوان «فى انتظار ما لا يجىء» ذاتا تحاول اللحاق بالعالم. ذاتا تنشد الآخرين ولا تبكى أحزانها وحدها بل ترثى خيبة الجميع. وإذا كانت الدلالات تتشابك وسط غابة من الاحتمالات داخل القصيدة الواحدة حيث لا نتبين صورة الشاعر معزولة عن صورة الآخرين ولا صورة الزمن وهو ينفصل عن حركة المجتمع كله كما أن صورة المحبوب هى الأخرى تقفز من المجسد إلى المجرد فإن ثراء الاحتمالات وتعقد الموقف وتركيب البنية الفنية هو الذى يعطى لتجربة فاروق شوشة نضجا وللغته شكلها النهائى. يقترب الشاعر فى هذا الديوان من اللوعة التى يشعلها الألم أكثر من وقوفه على ضفاف أحزانه الأولى ولهذا نراه يعتصر ذاته فى محاولة لرؤية النور فى الظلمة والحب فى حومة الكراهية والخلاص وسط المكيدة يقول فى قصيدة «الرحلة فى بحار العشق».

يا محبوبى
وحدى بعدك أعبر هذا الليل الموحش
أجتاز الفجر الكاذب هذا الوجه الممرور من الدنيا
أعدو نحو شعاعة وعد من عينيك
وأنهل ما يساقط من فيض الرؤيا
فامنحنى بعض أمان حين أطير إليك
اسألك بحق الساعات المخنوقة بين الجلوة والإطراق
اكفف عنى ظمئى
واحلل عقدة روحى
حين يخف القلب إلى عتباتك يجثو
ويلامس موطئ قدميك
ثم يقول فى «حال من العشق»
أواه من بعد الديار واستحالة المزار
يا أيها المسافر الوحيد قف
فالأرض غير الأرض والزمان خان
غادر الأحباب
صار الناس غير من عرفت فاسترح
تداخلت مواكب المودعين والمشيعين
والمنافحين عن بقاء لحظة من المرح
قد آن للعجلان أن يطامن الخطى
ويسترد من دماء نفسه بقية مضعضعة
فليس فى نهاية الطريق غير هوة الأسف

تتراجع فى هذا الديوان صورة الذات المفردة وتظهر صورة وجدان يعى علاقة الذات بالعالم لا باعتبارها جزءا بل ينغمس فى محاولة لإدراك «الكل» الذى يتجاوز الجميع. والكل الذى يتجاوز الجميع فى هذا الديوان يتجلى فى معظم القصائد مما يوحى ببعد روحى صوفى أو رؤية ميتافيزيقية للوجود ويضم الديوان خمس عشرة قصيدة يقترب نصفها من هذه الرؤية وتغوص بقية القصائد فى محاولة للإفلات من الزمن الأول. الزمن البدائى الذى يحيط بالجسد إلى زمن لا نهائى يواكب الروح. ويتبدى حس المقارنة بين العالم الواقعى بقبحه والعالم المثالى ببهائه حيا ومثيرا فى معظم قصائد الديوان يقول فاروق شوشة فى قصيدة المغنى والشيخ نظام الدين:

يا شيخ نظام الدين
يا وتد الأرض ويا أمن الدنيا
يا من نور الجلوة شمع مجالسه المشهودة
كأسك مفعمة بشراب العشق الأسمى
وبراقك يحملنا فى دهليز الرؤيا
ينجينا من أسر الظلمة فى ساح اللقيا
أيقظنا يا شيخ نظام الدين
إنا موتى
وسبات الموت طويل ما أقساه
حدثنا يا شيخ نظام الدين
إنا غرباء بهذا العصر
نضيع وراء زحام لغاه

أدركنا يا شيخ نظام الدين
فدروب الحق تقود إلى كنفك
هذا المتحلى بالياقوت وبالعسجد
فمتى نلقاه
الصوت المعول فى صحن المسجد
ما زال يردد
يا الله

وتتجـــاوب هذه القصيدة من حيث المعنى والمبنى مع قصيدة شـــمس الله فى قرطبة التى كتبها الشـــاعر من وحى زيارة لإســـبانيا كما لا تغيب فى هذا الديوان صورة الوطن ولا صورة المدينة التى رحل إليها الشاعر فى صباه لكى يحقق أحلامه والتقى فيها برفاق العمر الذين يبدون فى قصيدة «فى انتظار ما لا يجىء» وكأنهم قد واجهوا جميعا الفشل والخيبة.

يقول فاروق شوشة:

ها نحن فى دوامة الرمال ما نزال
تسوخ فى شراكها أقدامنا
نحمل أحلاما كسيرة مضعضعة
انفرط العقد الذى كناه. كم تناثرت حباته
تفتت قلوبنا ولم نعد معا
وشاخت النبرة فى شفاهنا وحشية عيوننا
مذعورة خواطر الخريف فى رؤسنا
يا أيها الشمل البديد كم شهدتنا معا
مشردين هانئين حالمين مقعدين

لكننا كنا معا
عمرا مديدا حاشدا مضيعا

إلى أن يقول:

وهمة ريفية التكوين لا نظنها تلين
لانت
ولنا
وانتهينا بددا مضيعين

فى ديوان «الدائرة المحكمة» اثنتا عشرة قصيدة منها اثنتان من الشعر العمودى ويبدو الشاعر فى هذا الديوان أمينا مع عالمه الشعرى فهو يحتفظ بعناصر تجربته الشعرية التى ترعرت بذورها عبر دواوينه السابقة حيث يتوهج صوت الحب ولكنه فى هذا الديوان حب يغوص فى عالم الحس تفوح رائحة الجسد من ثنايا قصائده كما تبدو البراءة ظلا غاربا وراء المناورات والحيل ويبدو الحصار محكما ولا يصبح الحب وحده الملاذ. كما تتضح صورة الوطن أقرب إلى القداسة ومركزا للولاء والانتماء كذلك برهن الشاعر على نبله من خلال هذه المراثى التى خرجت دامية من وجدان شاعر يبكى أصدقاءه: صلاح عبد الصبور – فوزى العنتيل – عبد الحميد الحديدى. وربما كان خير ما يمثل رؤيته فى هذا الديوان هذه الأبيات التى وردت فى قصيدة «إلى عابرة» من ديوان «الدائرة المحكمة» فهو لا يصور مجرد امرأة وإنما يجسد حلما وعالما وأملا وهدفا يقترب كله من الضياع يقول:

من أنت لا أدرى ولا من دليل لا ومضة تعشى فؤادى الكليل

ولفحة توقـــظ فـــــى خاطـــــرى كوامن العمر القصيـــــر الجميـــــل
عينك فــــى عمقيهمـــــا عالــــــم خصب الرؤى عات حفــى ظليـــــل

ثم يقول:

من أنت يا نجما بعيد المــــدى يسقط فى قلبى كعــبء ثقيــــل
عبء يشد الروح أنــى ســــرت مرتجة.. تحلم أيــن المقيــــل
نصل رهيف الحـد مسنونـــــه فى عمــق أعماقـــــى يجـــول
لفح كعصف الريــح فــــى ذره ما حملته كاسيـات الفصـــول
سرب من الأحــلام مذعـــورة ولت وفى الآثار منهـا فلـــول
من لى بمن يشعل هذا الدجــــى ويملأ الزيت ويرعـى الفتيــــل

لا شك أن تجربة الشـاعر فاروق شوشة كما حملتها أعماله الشعرية الكاملة تضيء عالما يمت بوشـائج عميقة إلى عالم الرومانسـية ولكنها ليسـت الرومانسية التقليدية بل الرومانسـية الثورية التى تحاول تغيير العالـم بالحلم والسـيف معا. كما إنها تضع لبنـة قوية فى صرح حركة الشعر الحديث وفى الكيان الفنى الذى أسسه شعريا جيل فاروق شوشة والذى اصطلح على تسميته بجيل الستينيات.

❑❑❑